

2020 سنة العراق..
وإيران أيضاخير الله خير الله
إعلامي لبناني

بدأت في العراق ولن تنتهي في العراق. لا تزال ارتجاجات الزلزال العراقي الذي وقع في العام 2003 ترتد إلى اليوم في أرجاء المنطقة كلها في ضوء الخلل في التوازن الإقليمي الذي تسببت به إدارة جورج بوش الابن. ما حصل في العام 2003، بعد دخول الأميركيين إلى بغداد، لم يكن مجرد إسقاط للنظام القائم، الذي كان في حاجة إلى من يسقطه في ضوء كل الأخطاء التي ارتكبتها.

ستكون السنة 2020 سنة التحولات الكبيرة في العراق، وهي تحولات لا بد أن ترتد على إيران نفسها. لكن السؤال الذي سي طرح نفسه أكثر فأكثر هو هل يمكن إعادة تركيب العراق وما طبيعة النظام الذي سيخلف النظام الذي أثبت فشله الذريع منذ 2003

ما حصل، على الصعيد العملي، كان أهم من ذلك بكثير. في 2003، انهار النظام الإقليمي الذي نشأ بعد الحرب العالمية الأولى وسقوط الإمبراطورية العثمانية في عشرينات القرن الماضي. كان العراق أحد الأعمدة التي قام عليها هذا النظام الإقليمي، كما كانت حدوده مع إيران تفصل "بين حضارتين كبيرتين في المنطقة"، على حد تعبير الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران. بخلاف آخر، إن الشرق الأوسط والخليج ما زالوا يعانين إلى اليوم من هذا الخلل الاستراتيجي الناتج عن سقوط العراق وزوال حدوده مع إيران وتقديمه على صحن من فضة إليها.

كل ما يمكن قوله في هذه الأيام إن النظام الذي تأسس في العام 2003، مباشرة بعد الاجتياح الأميركي للعراق، انتهى في العام 2019. ما الذي ينتظر العراق والمنطقة كلها، بما في ذلك إيران في السنة 2020؟

ليس مبالغة توقع أن تكون 2020 سنة إيران أيضا. مستقبل النظام الإيراني يتقرر في العراق، كذلك مستقبل المنطقة كلها بما في ذلك سوريا ولبنان، في حين تبدو قضية فلسطين في حاجة إلى إشعار آخر بعدما طغى الحدث العراقي وما تلاه على كل ما عداه من أحداث.

من الواضح، في ظل المعطيات الإقليمية، أن قمة حاجة إلى إعادة تركيب المنطقة بعدما استطاعت إيران تقنيت دول عدة من بينها العراق وسوريا ولبنان الذي أصبح على شفا انهيار اقتصادي يهدد تركيبته الاجتماعية والسلام الأهلي فيه ومستقبل كل مواطن.

كان العراق في أساس الانطلاقة الجديدة للمشروع التوسعي الإيراني الذي تسعى إدارة دونالد ترامب إلى وضع حد له منذ سنوات عدة وصولا إلى فرض المزيد من العقوبات على "الجمهورية الإسلامية" التي أسسها آية الله الخميني في العام 1979. قام وقتذاك نظام استطاع تغيير الشرق الأوسط بعدما استثمر إلى حد كبير في الميليشيات المذهبية التي سيطرت على لبنان وجزء من اليمن واستطاعت إبقاء بشار الأسد في دمشق، كما ضمت العراق الذي صار مع الوقت في أساس تراجع المشروع الإيراني وأفلاسه.

كان الفشل في العراق في البداية أميركيا. صار مع مرور الوقت إيرايا. ما تدبّر في نهاية المطاف أن إيران تستطيع أن تدمر، لكنها لا تستطيع أن تبني وأن مشروعها قائم على الهدم الاستثمار في الغرائز المذهبية وتاجيحها بغية تبرير دور الميليشيات المذهبية في السيطرة على مرافق الدولة. يظل ما حل بلبنان المثل الحيّ الأفضل على ذلك.



الذي سي طرح نفسه أكثر فأكثر هو هل يمكن إعادة تركيب العراق، وما طبيعة النظام الذي سيخلف النظام الذي أُنشئ له الاحتلال الأميركي وكانت إيران المستفيد الأول منه؟ هناك أسئلة عراقية من دون أجوبة. الثابت الوحيد أن الخلل الذي خلفه سقوط العراق مستمر ومعه تستمر الانعكاسات على المنطقة كلها. استغلت إيران طويلا هذا الخلل، لكن الوقت حان كي تعاني هي الأخرى منه. وهذا ما سيظهر بوضوح ليس بعده وضوح في السنة الجديدة التي ستكون سنة العراق وإيران في الوقت ذاته.

ممارسة الهيمنة خارج حدود إيران من دون اقتصاد قوي، فوق ذلك كله، ليس لدى إيران نموذج ناجح تقدمه في أي مجال من المجالات. إن الفشل الاقتصادي الإيراني جعل "الجمهورية الإسلامية" عاجزة عن مواجهة العقوبات الأميركية التي ستزداد في السنة 2020. ما الذي ستفعله إيران أمام فشلها في العراق، وهو فشل بلغ ذروته بوضع رئيس الجمهورية برهم صالح استقالته في تصرف مجلس النواب ردا على سعي طهران إلى فرض ميليشيوي رئيسا للوزراء. ما تؤكد ردود فعل رجل عاقل مثل برهم صالح، غير معاد لإيران، أن شيئا ما تغير في العمق في العراق. معنى ذلك أن لا مستقبل لـ"الجمهورية الإسلامية" في العراق وأن الثورة الشعبية التي يشهدها البلد، إنما هي ثورة على إيران قبل أي شيء آخر.

ستكون السنة 2020 سنة التحولات الكبيرة في العراق، وهي تحولات لا بد أن ترتد على إيران نفسها. لكن السؤال

الذي يلعبه "الحرس الثوري" في إيران. هناك أمران تجاهلتهما إيران في سياق سعيها إلى السيطرة على العراق. كان الأمر الأول أن شيعة العراق ما زالوا يؤمنون بالعراق وأن الروح الوطنية العراقية، التي برزت في حرب 1980 - 1988 ما زالت حية. هذه الروح الوطنية شكّلت حاجزا وقف دون تقدم إيران في جنوب العراق عندما اختل التوازن العسكري لمصلحتها في أثناء تلك الحرب. هذه الروح الوطنية تجاهلها إيران في كل مكان تعمل فيه على فرض سيطرتها، بما في ذلك لبنان. من بين أهم ما تشهته الثورة الشعبية في لبنان، وهي ثورة مستمرة منذ السابع عشر من تشرين الأول - أكتوبر الماضي، أن لا فارق بين شعبي وسني ومسيحي ودرزي في لبنان. يريد الجميع العيش في وطن يتساوى فيه كل مواطنيه ولا تحكمه ميليشيا تابعة لـ"حزب الله" أو أدوات مسيحية تابعة لهذه الميليشيا. أما الأمر الثاني الذي غاب عن بال النظام الإيراني فهو أن ليس في الإمكان

قصة احتلال عجيب

تصحو عليه، وتنام به، حتى تصبح أحلامك نفسها مجرد كوابيس. ولئن قلت، فلا أحد يصغي. ولئن تذرمت، فمصيرك السجن والتعذيب، ومن بعده الجوع والحرمان. ولئن بدوت أنك تشكل خطرا، قتلوك.

لا شيء بحد ذاته هو المشكلة، بل كل شيء. لأنك كيفما درت، دارت عليك بقية الدوائر. فلو وجدت عملا يُنجيك من الفقر والبطالة، ظل الظلم قائما. ولو تواطات مع مصيبة، انقلبت على رأسك أخرى. وهكذا ظلم يتبعه ظلم وظلمات تغشاه وظلمات، في العيش، في الثقافة،

الطاولة، حيث تتحرك أيادي "الخذ والهاث"، من تعيين الوزراء ورئيسهم ونوابه ومديره إلى آخر شرطي مرور.

هذا هو نظام الحياة الذي يرعاه الولي "الفقيه" في العراق ولبنان

كانته فقيه تحريف وإفساد. ولتلك هي عمامته، لا أكثر ولا أقل. ضع نفسك في بيئة كهذه، وجرّب ما تعني لبيض سنوات، ولسوف ترى أن الموت فيها أكثر رحمة بكثير مما تفرضه عليك من ظلم وقهر وإحباط.

علي الصراف
كاتب عراقي

ما الذي يجعل العراقيين واللبنانيين يتظاهرون من دون انقطاع، ولو تحت زخات الرصاص؟ أهو الفقر؟ أهو الفساد؟ أهو البطالة؟ أهو البؤس والإحباط؟ كل هذا، صحيح. ولكن هناك سبب آخر أهم، هو أن هذين البلدين واقعان تحت الاحتلال. وهو احتلال ليس كأي احتلال.

الاحتلال لا يُطاق، فكيف إذا كان هجريا صادرا عن معتقدات جاهلية، ولا ينتسب إلى عالم اليوم، يسعد بسفك الدماء، ولا يقيم وزنا للقيم الإنسانية، ولا يعرف معنى الدولة، ويقوم على فرضيات أجهل من الجهل نفسه.

الاحتلال الإيراني للعراق ولبنان لا يريد أن يرعى حتى مصالح شعب إيران، ولا يقدم له شيئا. وسوى الخراب، فإنه لا يقصد تنمية ولا اقتصادا ولا استقرارا اجتماعيا ولا علاقات متوازنة مع العالم. وإذ يعيش في الماضي ليستولد منه أحقادا طائفية، فإنه غير معني بالمستقبل أيضا.

وهو إذ يستعين بميليشيات، ومصنابات مسلحة فليس لأنه يستعيد استراتيجيا إسما عليل شاه الصفوي التي تقصد التسلسل بغرض التفكيك والإفساد، فحسب، بل لأنه يريد لها أن تكون أداة للفوضى الدائمة، حتى بعد أن يقر لها القرار.

وهذا نمط من الحياة يجعل كل الخاضعين له كأنهم يعيشون في غابة، كل شيء في طبائعها بدائي وعشوائي ويقوم على مصالح وتسويات لا أساس لها ولا قاعدة ولا معيار. كل شيء فيها يتقرر من تحت

أي علاج سرعان ما يُصبح من رابع المستحيلات. لأنها بيئة كفيلة بأن تحول السياسة والاقتصاد والعلم، وكل شيء آخر، إلى هراء. بل وتحول الناس إلى قوارض تنهش بعضها بعضا، والكل ضحايا. ويغمر علاقاتهم بانفسهم العفن نفسه. لا أحد يملك أفقا، ولا بدائل ولا خيارات، إلا الموت، فهو أرحم.

هذا هو "الفقه" الذي يفرضه عليك احتلال ليس كأي احتلال. وهذه هي الدورة، التي ظل العراقيون يدورون فيها 16 عاما، وحولها لواء الحرس الثوري الإيراني في لبنان، بقيادة حسن نصرالله، في 30 عاما، إلى نمط حياة، إما أن تقتله، وإما أن تتلفق، حتى بلغت الجرة برئيس تابع لهذا اللواء أن قال لشعبه "ارحلوا إذا كان مش عاجبكم".

ولا تعرف على أي شعب سيكون رئيسا إذا رحل الشعب وبقيت الأغنام؟ ثم انظر إلى ما جناه الشعب الإيراني من النزعة التوسعية لنظامه، ولن تجد إلا الخراب. مئات المليارات بددت من دون طائل، بينما ظلت إيران تعيش على أقل مما كانت تعيش عليه قبل أربعين عاما. كان ساعة الحياة ما دارت على منقلب. ومثلما يجوع ويفقر العراقيون واللبنانيون، يجوع ويفقر الإيرانيون.

ويفخر قاسم سليمان أن "خاض كل حروب إيران خارج أراضيها"، ولم يساله أحد "لماذا الحروب من الأساس؟". يمكن المرء أن يجزم أن الإيرانيين لمّا خرجوا للتظاهرات، ما كانوا ليحتجوا على شيء محدد. إنما فعلوا ذلك تحت وطأة القهر العام، لا تحت وطأة مشكلة واحدة.

المشكلات الاقتصادية يمكن حلها. بضعة موارد إضافية، أو صفقات، أو قروض، يمكنها أن تفتح الأبواب. وقد تتسنى مكافحة الفساد ببعض إجراءات وقوانين. والشباب قد تتوفر لهم وظائف والتعليم قد يمكن رفع مستواه. ولكن في بيئة خرافية، نعت من خيالات مريضة، ومشاعر فقهية تفوح منها العفونة، فإن

مشاكلهم الذين دارت عليهم بقية الدوائر. أفهل يمكن المرء أن ينقم على أي مجرم هناك؟ انظر في العفن الذي يغمره، وبقايا الأشلاء التي مرّتها باظفار، وبقع الدم على أسفله، ومدوم ضحايا. وسترى إنه زومبي، ولد من حكاية خرافية، وجاء ليحكم باسم الله.

العرب

أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهونيرئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول

د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهونيمدراء التحرير
مختار الدبابي

كرم نعمة

حذام خريف

منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني

سعيدة يعقوبي

تصدر عن

Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 - 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان

Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.ukwww.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk